سيمونز... ذاك البهيميّ

للكاتب البريطاني: آرثر موريسون Arthur Morrison

يعد «موريسون» أحد القلة من كتاب جيله المنتمين إلى مدرسة التسعينيات ممن تلاقي أعمالهم رواجاً حتى يومنا هذا. وقد اشتهر «موريسون» بمجموعته القصصية القصيرة «حكايا الدروب الحقيرة» والتي اخترنا منها قصتنا هذه فيما تعكس المجموعة برمتها نمطية تلك الحياة الوضيعة في منطقة الـ «وست إند» بلندن.

ـ القصة:

كان ما قام به «سيمونز» من تصرف إزاء زوجته ـ ولا يزال ـ مثار حيرة واندهاش الحيّ بكامله، إذ كانت الجارات طرًّا يرين فيه مثال الزوج الحُلُم لزوجةٍ واعيةً مقدرة. وهي لم تكن لتتوانى عن خدمته والسهر على راحته ورعاية كافة أموره حدًّا تجاوز ما كان يُنتظر منها ويتوقّع، فما زاد على أن كافأها على كل ذلك بذاك التصرف الموغل في الغرابة والإدهاش... لا ريب وأنه قد فقد صوابه!.

قبل أن تقترن «بسيمونز» كانت زوجةً للسيد «فورد» الذي قضى نحبه برأس البحر مع من كانوا معه على متن العبّارة ولم يعثر لهم على أثر، ومضى مخلّفاً إياها دون أبناء تماماً كما كانت حالها... مع «سيمونر». فأما الأخير فقد كان من حسن طالعه أن قّيض الله له زوجة مخلصة تقوم على كل شؤونه وهو النجار المتواضع في كل شيء؛ في طموحاته ونظرته للحياة... في آماله وتطلعاته ومعيشته التي لا يعلم غير الله ما كانت ستؤول إليه لو لم يقيض الله له زوجة مثلها... والسيد «سيمونز» كان رجلاً هادئاً مسالماً بوجه طفولي وعوارض شحيحة متدلية. ولم تكن له مساوئ... حتى أنّه قد هجر غليونه بُعيد زواجه بعد أن طعّمت بعله حياته بالعديد من الفضائل، وظل يحافظ على طقوس العبادة ثم

يعود إلى بيته فينهمك في مساعدة زوجته في شؤون المنزل ويرافقها أيام السبت... لحمل أكياس التسوق، ولو عرجنا على السيدة «سيمونز» لرأينا تحليها بخصال لا تعدّ أو تُحدّ... كانت مدبّرة منزل رائعة.. تقسّم مرتب زوجها المتفاوت بين ستة وثلاثين وثمانية وثلاثين شلناً على متطلّبات المنزل بدقةٍ وحكمة، ولم يكن ليحزر أبداً ما كانت تفعله بالفائض من ذلك ومقدار ما ادخرته، أما حبها للنظافة ففاق التصور. كانت تقابل «سيمونز» لدى الباب بعد عودته من عمله كل يوم فتتناوله خفّ المنزل، ويظل المسكين يتأرجح يمنةً ويسرة في خضمّ استبدال الحذاء على الأرض الباردة وهي باردة؛ لأن زوجته تكون قد فرغت للتو وجارتها من شطف الممرات... وقد اعتادت على تذكير زوجها «بتنظيف نفسه» بعد انتهاء عمله كل يوم حتى إذا ما ضّمته جنيات منزلهما اللامع ما بدر منه ما يشوِّه تلك النظافة الجمة. أما لو أحدث بقعة دون قصد هنا أو هناك فإن حرمه المصون تظل تكرر على مسامعه تلك الذكرى الأليمة! كم أنت مهمل... ألا تراعي شعوري؟ ما تفتأ بعيد ذلك تردّد وكانت تصحبه ـ بدايةً ـ عند شراء ملابسه: أنتم حمقى معشر الرجال ومن السهل على أصحاب المتاجر خداعكم ـ وعثرت بعد ذلك مصادفة على متجر صغير لبيع المستعمل فدأبت على شراء ملابسه منه ثم عدلت عن ذلك حين قررت صنع ثيابه بنفسها فهي تعمد إلى بدلته القديمة فتقصها جاعلةً منها... بزّة أخرى ذات طراز حديث... وكانت أول بدلة من هذا النوع قد أنجزت يوم الإثنين، وقبل أن يلتقط أنفاس الدهشة كان قد أُلبس إياها فغادر بيته مأخوذاً وسار وهو في أغلال الانبهار لمّا يزل. ولم تكن كما توقع... ما وجد راحة فيها... بنطال ضيّق عند المقدمة وساق مسترسل عند الكعبين وغابة من الكسرات، وجد نفسه غارقاً فيها إما جلس. أما القميص فلم يكن بأحسن حالاً... ياقة خانقة وأكتاف معطف تتماوج حول الكتفين كخضمٍّ مضطرب... واستثار ذلك دعابة رفاقه بعد إذ وجدوا فيه مادة للضحك زاد فيها إصرار زوجته على التوغل في عالم الابتكار الحداثي في عالم التفصيل!

وباءت محاولات «سيمونز» لإقناعها بالتوقف عن خياطة ملابسه بالفشل. حاول أن يجعلها تدرك أن ما تخيطه لا يسر العين أو الخاطر... أن ذلك يستنزف الكثير من جهدها ووقتها دون طائل... أن هناك خياطاً رائعا في الجوار وبإمكانهما... على إنها قاطعته:

ـ كم أنت للود حافظ...! تمارس الكذب نهاراً جهاراً دون أن تأبه بعواطفي... أستطيع أن أقرأك ككتاب مفتوح «سيمونز» أفني أيام عمري في عمل مضنٍ بغية توفير شيء من المال وهذا ما أجده مقابل ذلك! تعلم جيداً أنه باستطاعتي الاسترخاء على سريري طوال اليوم كما تفعل الكثيرات... ذاك ما قد أفعل! وأغلق «سيمونز» باب النقاش في هذا الأمر برمته فلم يعد يتطرق البتة إليه... حتى... حين تقرر جزّ شعره إما طال! ودام على حاله تلك أعواماً عديدة، حتى أطلت أمسية صيف سعيدة ذات مرة حين حملت السيدة «سيمونز» سلة التسوق وغادرت البيت، وعمد إلى عدة الشاي فمسحها وأعادها إلى مكانها ثم طفق ينظر إلى بنطال جديد كانت قد أنهت خياطته له للتو وعلقته على المشجب.. تأمله فإذا هو قصير الساقين واسع الخصر غاية في الحداثة الباعثة على السخرية... كان أسوأ مما سبق له ارتداؤه واستيقظ في داخله صوت ثائر احتج على ذلك كله... على أنه تجاهله بعد أن أحس بما لزوجته من فضائل ليس أقلها محاولة تكوين اكتفاء ذاتي فيما يختص بصنع ملابسه... على أن ذاك الصوت الداخلي لم يلبث أن علا مذكّراً إياه بما ستؤول الحال إليه حين يراه صحبه مرتدياً ذاك البنطال العجيب:

ـ ألق به في سلة القمامة ـ هتف الصوت به ـ فذاك هو مكانه!.

على أن موجة خجل داهمته ثانية ممزوجة بشيء من تأنيب الضمير فعمد إلى نفسه يؤدبها بإعادة تنظيف أواني الشاي تارة أخرى! واتجه إلى الغرفة الخلفية محاولاً أن يسري عن نفسه بالنظر إلى الشارع فها له أن رأى السور مفتوحاً! ـ لا بد وأن طفل الجيران قد تركه ناسياً ـ قال لنفسه ـ لن تسمح زوجتي بتركه

مفتوحاً أبداً! زلة لا تغتفر ـ وهبط الدرج كيما يغلقه قبل عودة زوجته فلاحت منه إبان ذلك نظرة إلى الشارع. ثمة رجل كان يتسكع على الرصيف محدقاً في بابهم بفضول عجيب، بوجه لوحته الشمس ويدين مغمدتين في جيبي بنطال أزرق وقد اعتمر قبعة بحارةٍ مكللة بالصوف ولما رأى السيد «سيمونز» خطا نحوه ثم سأله:

ـ السيدة «فورد» خارج البيت إذا ... أليس كذلك ثم تابع:

ـ السيدة «فورد» سالفاً أما الآن فهي السيدة «سيمونز» أليس كذلك؟ ـ ماذا؟ قال «سيمونز» بعد إذ تأمل الوافد الغريب قرابة ثوانٍ خمس!

كان الغريب قد طرح سؤاله مصحوباً بنظرة ازدراء ما فهمها «سيمونز» ولا هي راقت له.

ـ كلا ـ رد سيمونز ـ هي غير موجودة راهناً!

ـ لست زوجها إذاً أم أني مخطئ.

ـ بلى أنا هو.

وأخرج الغريب غليونه من فمه ثم رسم على شفتيه ابتسامة هادئةً طويلة:

ـ سبحان الله... إنك من الصنف الذي يروق لها.

قال ذلك ثم ابتسم مجدداً، على أنه سارع بوضع قدمه بين درفتي الباب الذي رأى أن «سيمونز» كان على وشك إغلاقه موكلاً إلى يده مهمة دعم قدمه حين أسندها إلى زجاج البوّابة!

ـ لم العجلة يا صديقي ـ قال ـ جئت لأتحدث معك قليلاً حديث رجل لرجل وقطب فجأة جبينه بشدة!

ـ وزايل «تومي سيمونز» كل شعور بالراحة على أنه لم يستطع إغلاق الباب فصاح بالطارئ:

ـ ماذا تريد؟ أنا لا أعرفك.

ـ فاسمح لي إذاً بالحديث كيما أعرفك بنفسي، ومسَّ قبعته بأطراف أصابعه عربون تواضع وحسن نيّة.

ـ أنا «بوب فورد» ولقد كُتبتْ لي النجاة من غرق عبّارة منذ خمس سنوات ـ وقد أتيت لأرى زوجتي!

إبّان حديث الغريب كان فك «سيمونز» السفلي يمارس عملية تهدل مستمر. وما أن انتهى الرجل من حديثه حتى خلّل بيديه شعر رأسه ثم أجال بصره بين عمود الإنارة وأرضية الشارع وعاد ليحدق في الغريب... ما ساعفته الكلمات فمارس خرساً مؤقّتاً:

ـ جئت لأرى زوجتي ـ علينا أن نسوّي الأمر بيننا رجل لرجل! وأغلق «سيمونز» ببطء فاه ثم قاد الرجل إلى منزله في الطابق العلوي برتابة آليّة وأصابعه بين طيات شعره لمّا تزل. وجالت بخاطره مجريات الأمور تباعاً ثم... فاجأه ذاك الصوت الكامن... الصادر من أعماقه: فلنفترض أن هذا الرجل كان زوجها السابق... فهل ستكون تلك قاصمة الظهر بالنسبة لك. وفكر في بناطيله... في عدة الشاي في النوافذ التي طالما كلّف بتنظيفها بالملاعق والسكاكين... فكر في ذلك كله تفكيراً عميقاً ـ وعلى عتبة الباب جذب «فورد» ذراعه ثم سأله: كم من الزمن تبقّى على عودتها؟

ـ ساعة تقريباً ـ رد «سيمونز» معيداً في خاطره السؤال ذاته قبل أن يفتح الباب:

ـ آه... ـ قال «فورد» ـ أنت غارقٌ في النعيم ـ ذاك الأثاث كان لكلينا ـ أصارحك في حديث رجل لرجلٍ. وجلس نافخاً دخان غليونه على إحدى الأرائك:

ـ هاأنذا إذاً هنا... السيد «فورد» ذاك الذي راح ضحية غرق عبارةٍ مؤلم... غير أني لا أزال حيًّا أُرزق!.

ووجه طرف غليونه إلى معطف «سيمونز» ثم تابع حديثه:

ـ لا زلت ـ بمشيئة الله ـ حيًّا أرزق كيف؟ سأقول لك؛ قيّض المولى لنا سفينة ألمانية انتشلنا طاقمها إلى بّر الأمان ـ لقد سعيتُ في مناكبها عدة سنوات ثم عدت لأرى زوجتي.

ـ إنها... إنها لا تقبل أن يدخّن أحد هنا ـ قال «سيمونز» بشكل عشوائي.

ـ إنها بالتأكيد لا تقبل ذلك ـ رد «فورد» مخرجاً غليونه من فمه وتابع ـ أعرف «آنر» ولكن قل لي كيف تجدها؟ أتكلّفك بتنظيف النوافذ؟

ـ حسناً ـ رد «سيمونز» معترفاً ـ أمدُّ لها يد العون أحياناً.

ـ والسكاكين... وعدة الشاي أعرف لِمَ ـ قال الزائر الثقيل ـ قبل أن ينهض فينحني ملقياً نظرة على رأس «سيمونز»... كما توقعت فهي تحلق شعرك كذلك ـ وشرع يتأمل زوج زوجته وقد احمر وجهه خجلاً، ثم رفع إحدى ساقي البنطال المعلق خلف الباب وتابع: ـ أراهن إنها من خاطه لك ـ طريقتها المميزة ذاتها... يا إلهي إنه أسوأ من هذا الذي ترتديه الآن...! وعلا بداخله مجدداً ذاك الصوت الشرير:

ـ لربما اضطر هذا الوافد إلى ارتدائه لو استرد زوجته. وعاد الغريب إلى إلقاء الكلام جزافاً:

ـ إنها هي... لم تتغير صوب الأحسن أبداً يالك من مسكين! وقتها أحس «سيمونز» بأنه يتدخل فيما لا يعنيه كثيراً ـ إنها كما هو واضح زوجته قبل أن يقترن هو بها ولا ريب أن جحا أولى بلحم ثوره ـ هتف به ذاك الصوت الباطني تارة أخرى!

ـ حسنا ـ قال «فورد» فجأة ـ الوقت كالسيف... لا أريد أن أقسو عليك يا رفيقي على أنه من العدل أن أدافع عن حقوقي... لكن بما أنك شاب طيب تبدو ملامح الخير جلية على قسماتك... وبما أنك تعيش حياة زوجية سعيدة لا تكدر صفوها شائبة فسوف أسوّي تلك الجناية المرتكبة بحقي بشكل لن تضطر معه إلى دفع الكثير، سأكون جواداً معك يا صديقي... حسناً سأطلب مبلغاً معقولاً... رجلاً لرجل... لن أرضى بأقل من خمسة جنيهات.

ولم تكن بحوزة «سيمونز» خمسة جنيهات ـ بل أنه لم يكن يملك خمسة قروش وجاهر للتو بذلك، ثم زاد على ذلك بأن قال:

ـ كما أني لا أرتضي لنفسي أن أقف بين رجل وزوجته... لن يكون ذلك سهلاً علي... على أنّ من الواجب أن أُحقّ الحق!

ـ كلا ـ رد «فورد» بسرعة ـ ممسكاً بذراع «سيمونز» ـ لا تفعل ذلك سأسهل الأمر عليك: قبلت بثلاثة جنيهات ـ هيا منتهى العدل أليس كذلك ـ سأقبل ذلك على مضض مقابل مغادرة هذا المكان إلى الأبد حيث تزأر العواصف في أعالي البحار ـ ثلاثة فقط وسوف لن تراني بعدها... أهناك ما هو أكثر عدلاً من ذلك؟

ـ بالطبع بل أن ذلك قد فاق العدل حدًّا وجاوزه إلى درجة النبل، على أني لن أسمح لنفسي أبداً أن أبتز رجلاً طيب القلب مثلك ـ إنها زوجتك سيد «فورد» ولن أفرّق بينكما... اقبل اعتذاري... من حقك أن تستردها... وأنا من يجدر به أن يرحل ـ قال «سيمونز» ذلك ثم خطا صوب الباب:

ـ توقف! قال «فورد» حائلاً بينه وبين الوصول إلى الباب:

ـ لا تكن أحمقاً... انظر إلى ما ستؤول إليه حالك إما اندفعت مخلفاً وراءك مسكناً طيباً وزوجة تعنى بك ـ يا للهول... حسناً... قبلت بجنيهين... اجعله جنيهاً واحداً... صفقة رجل لرجل... وسأرحل. وضج المنزل بهزيم طرق مزدوج على الباب الأمامي... أن يُطرق الباب في منطقة «الوست اند» مرتين فذاك أن يعني أن المرادهم أصحاب الدور العلوي:

ـ من الطارق؟ تساءل «فورد» بذعر.

ـ سأرى الباب. قال «سيمونز» منطلقاً لا يلوي على شيء. وسمعه «فورد» يفتح الباب... أما هو فذهب يستشرف الأمر عبر النافذة... وحينما أطلّ بصُرَ بقبعةٍ سرعان ما غيبها الجدار قبل أن يطرق أسماعه صوت أنثوي مألوف علا متسائلاً:

ـ حسناً أين تزمع الذهاب دون قبعة؟.

ـ «آنر» عزيزتي ثمة شخص في البيت تهمه رؤيتك ـ جاءه رد «سيمونز» الذي ولى مسرعاً حتى تلاشى طيفه بين طيات المساء. وبقفزات ثلاث بلغ «فورد» منبسط الدّرج حيث كانت زوجته تحدق كالمأخوذة في مسار «سيمونز» أما هو فتوارى داخل غرفة خلفية فتح نافذة فيها قافزاً عبرها إلى الفناء الخلفي وغيبته تجاويف الطريق فما بَصُرَ مخلوق به وهذا بالضبط: ـ هَجْرُ «سيمونز» لزوجته نهاراً جهاراً دونما سبب أقصد ـ هو مثار دهشة الحي بكامله.

❀ ❀ ❀

obeikandl.com